مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 8 العدد 2أ، 2011، ص ص 459- 492

جهود العقاد في الدفاع عن اللغة العربية

أحمد فليّح *

ملخص

تنهض هذه الورقة بعرض الطروحات التي أذن بها العقاد وجلَى بها جوانب من خصائص العربية وجمالياتها، ودفع في جانب آخر التهم التي استهدفت العربية وما زالت كذلك في عصرنا. لننتفع بها في تفهم العربية والدفاع عنها.

هذه أطروحات أذن بها عالم فذ من أعلام الفكر العربي، وجلها خطاب يجلي ما انطوت عليه العربية من عبقرية، ونواميس مشتهرة، حري بأهلها، بعد أن لجوا في أمر مريج، أن يريعوا إليها ليتبينوا أمرهم، في هذا الزمن الرديء، الذي يجعل الحليم حيران، ويمسي المرء مسلماً ويصبح كافراً، وتارة لا يلوي على شيء. والعقاد، رحمه الله، الذي لبى نداء ربه سنة 1964م كان من الناس الحراص الغيارى على اللغة العربية، وعلى الموروث الثقافي، والديني، وعلى الهوية، وكان يعيش عصر التحديات للعربية والهوية، وكان ذاك في إبان الأربعينيات، أو قبلها، فتكلف جملة من الأفكار نهض بها يدفع عن الأمة ما يتغولها يومئذٍ من فواقر، تستهدف الهوية برمتها، وفي وكده غرض ظل يتغياه، وسمت همته إليه، وهو إقامة الناس على محجة الفصحى، وسبيل العروبة والإسلام. فنسل حزمة من الآراء تخلقت في هاتيك الأيام، والظروف هي الظروف، والأعداء أنفسهم بل أصبحوا أشد لدادة وضراوة، والغاية نفسها منذ زمن بعيد، استلاب الأمة وارتهان إرادتها، والزج بها إلى أسفل الدركات، من أعلى الدرجات. لذا يحسن إذاعتها اليوم بين الناس، فهي تشكل منظومة أدواء ممضة، وجملة آلام مؤرقة، والدواء هو نفسه صلح للأمس، ويصلح لليوم، فمن هنا وجاهة هاتيك الأفكار وخلودها، كأنها صيغت اليوم في التو. وجاءت هذه الأفكار في محورين: الأول يجلي خصائص اللغة العربية وسننها، ليزداد الناس منها حباً، وبها تعلقاً، على بصيرة، والمحور الثاني جملة من المقارنات مع اللغات الأخرى، ليستكشف ما امتازت به العربية، ومدى تفوقها على أقرانها، كي يقيم الحجة على قبيل الاحتقار والانبهار، الذين لجو في دعاواهم ومزاعمهم بضعف العربية في أساليبها، وفي أصواتها وفي رسمها، وفي عجزها عن النهوض بمتغيرات الفكر، ومستجدات الثقافة والحضارة. فطالبوا انتجاع الآخر، وتمسكوا باللغة المحكية، وانبهروا باللغات الأجنبية فكان منتهى الأمل الذي يتغياه أحدهم رطانة أجنبية، وقعود الهمة لدى اللغة المحكية. فكان الخطاب العقادي موجهاً للشريحتين، ولكل أطياف الأمة على مختلف منابتهم ومشاربهم، أن يتحصنوا بآخر الحصون وهو اللغة والثقافة، بعد أن انهارت جل الحصون وجل الثوابت.

© جميع الحقوق محفوظة للجمعية العلمية لكليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2011.

* قسم اللغة العربية، جامعة جرش الأهلية، جرش، الأردن.

واستجمعت هذه الورقة جملة من تلكم الأنظار، تلقطناها، وأجلنا فيها النظر، والعقاد فيها يأخذ بيدك ليعرفك حقيقة لغتنا العربية، ويزيدك تشبثاً بها، حين تتعرفها، من قبل أن الناس أعداء لما جهلوا، ويجعلك تهطع مختاراً مقتنعاً حين يقيم هذه المقارنات التي يؤصلها على الحق والمنطق، ويجعل العربية تخرج أبداً منتصرة متفوقة، فيهش القارئ لذلك، من غير تنفج، فيقبل مختاراً طائعاً هاتفاً من ضميره: إن أمتنا ليست بكيئة، وإن لغتنا ليست عقيمة. والغرض الذي يتغياه العقاد في منتهى أطروحته هو استفزاز الوعي لدينا، كي نعرف حجم همنا ومبلغ الخطر الذي يتهددنا، ليحرك النفوس الهاجعة، والإرادة المتراخية.

تمهيد:

من أشق الأمور على المرء أن يعرض شخصية للناس مبدعة، في وجوه لم يعرف بها للناس، إذن لأجفل الناس. فالعقاد، رحمه الله يشكل قامة ثقافية مديدة، في كل ألوان الفكر والمعرفة، ولكنه ما عرف نحوياً من المدخل الاصطلاحي، مع أنه يتمرس به أداء ونظراً، لكن الناس لم يشتهر بينهم في البعد الثاني اشتهاره في الأول، لذا فالورقة هذه تتوقع أن يستنكر القارئ الاعتيادي، أو يستهجن العقاد نحوياً، بيد أن العارفين يتمثلون ذلك جيداً، لكنهم ربما تعبسوا مستقلين هذا العمل، من قبل أن الأطروحات مألوفة، وليست الآن جديدة. نقول: إنها أصيلة في حكم سياقها التاريخي، وهي متجددة أبداً، لأنها تجلي وتعالج إشكالات متجددة، وتحديات معيشة، فهي جديدة متجددة، حية خالدة، خلود الفكر الأصيل على تقادمها. فهي أفكار تجريدية مطلقة، نفتقر إليها كلما حزبنا أمر منوط بها، فهي علاج لا يبلى بل يتجدد لأن الخطاب اللغوي، والأدواء هي نفسها ما زالت بين ظهرانينا.

يحار المرء من أين يتقحم هذه القلعة الشامخة، ويؤنسنا هنا قالته، نتقوى بها، وتغرينا: "وإذا تعود الناس أن يسمعوا واحداً من الكلام عن إنسان تاقوا إلى سماع كلام عنه من ضرب آخر"[1]. ولعل في ذلك مقنعاً لجلة القرائين الكرام، فهذه المسألة التي نتصدر للمرافعة فيها تنتظم هذا الأمر. ثم إن الدواعي التي دفعت العقاد يومئذٍ إلى أطروحاته هي هجمة على الدين واللغة ورميهما بالتخلف والضعف، فكان شديد الانفعال بفكرة التحرر، وكان شديد الاعتقاد بأن الفرد المتحرر محور العالم، وأدنى أدوات التحرر وموئله اللغة التي هي لب النظام والانتماء، وهي صوت المجتمع السابق على صوت الانفراد، ولأنها تراث جماعي [2].

ثم إن صوت العقاد القوي، وفكره الألمعي، وقدرته الفذة على الحجاج جديرة بدفع الإصر عن الأمة وموروثها؛ فهو لا يزال يلح على الفكرة بتوليداته واستنباطاته حتى تتحول من بذرة صغيرة إلى شجرة باسقة الظلال... فإذا تعمقت معه أصبت لذة لعقلك وشعورك معاً[3]. وتلمح هذا جلياً في كتبه: العبقريات.

وسبحان الله، ليس العقاد وحده هو المدافع عن هذه اللغة بحرص، ولكن إرادة الله شاءت أن يقرن مصير هذه اللغة بكلام الله تعالى، القرآن الكريم، وإلا استحالت هذه اللغة من لغة المعاهد إلى لغة المعابد. ولقد أحس العالم الجليل الثعالبي هذه الأمثولة فقال عن اللغة العربية: "وكلما بدأت معارفها تتنكر، أو كادت معالمها تتستر، أو عرض لها ما يشبه الفترة، رد الله تعالى لها الكرة، فأهب ريحها، ونفق سوقها بفرد من أفراد الدهر أديب"[(4)].

وانبرى صوت معاصر يجسد هاتيك المثلات:

كلما درست دمنة هب ألف امرئ القيس يدفع عنها الذبول

ومن أجدر من العقاد الشاعر، والأديب، والناقد، والمفكر بترويج العربية، وتسويقها لدى الناس، أداءً وتنظيراً. وما من قضية تولاها العقاد إلا ألبسها ثوب الإقناع والمنطق والحق.

منهج الدراسة:

قام منهج الدراسة على تلقط أطروحات العقاد، وتصنيفها، ثم تحليل ما انطوت عليه من أفكار ورؤى، كانت غايته بلورة مشروع نهضوي لغوي، ثم محاولة امتحان هذه الأفكار في سياقها التاريخي، وفي قيمتها لدى روح العصر. ومدى إمكانية توظيفها في الخطاب الراهن المعيش، والانتفاع بها في الذب والمحاماة عن أصالة العربية، والموروث الثقافي كيما يواجه حالة العولمة في المشهد الثقافي الراهن، وما الفعل الذي نستنبته من معدن اللغة اللاحب فيها كي نستصفي طرائق ناجعة في التجذر في اللغة والهوية، وتعزيزها لدى أهلها الذين عقوها. وفحص الطرائق الفذة التي عالج بها العقاد المقارنات اللغوية، ليؤصل للعربية وجوداً فاعلاً، وتفوقاً مشهوداً بالأمثلة اللغوية الحية، فيخرج القارئ ممتلئ النفس مقتنعاً، بأصالة العربية، ويسر تعلمها، وأنها أرقى وأسهل من كثير من اللغات العالمية، فلعل آخرين يرجعون عن ردتهم رجوعاً حميداً، ولعل آخرين يزدادون تمسكاً راشدين، فالمنهج وصفي تحليلي، يقوم على فرز الآراء، ثم مناقشتها وأحياناً قرنها بآراء القدامى والمحدثين لتزداد رسوخاً وإقناعاً لدى المتلقي.

عناصر الموضوع:

تيسر لنا استجماع جملة من الأفكار والرؤى التي رشحت من فكر العقاد، وصنفناها في محورين رئيسين:

المحور الأول: أنظار في التجلية والكشف عن بواطن العبقرية ومنها:

1. اللغة العربية اللغة الشاعرة في تركيب أصواتها المفردة.
2. خصائص العربية في تركيب مفرداتها على حدة.
3. خصائص العربية في نحوها وعباراتها.
4. سمات العربية في إيقاعها وأوزانها.
5. العربية لغة المجاز.
6. العربية موئل الفصاحة والصراحة.
7. العربية تجسد نفسية أهلها.
8. فكرة الزمن في العربية.
9. العربية أقدم اللغات.
10. العوامل النحوية في العربية.
11. قضية التناسب بين الأصوات والمعاني في العربية.
12. الدعوة إلى التيسير:

أ. تيسير في الكتابة ب. تيسير في النحو

ج. تيسير العروض د. تيسير التعريب

13. الصفة في العربية.
14. الظرف في العربية.

المحور الثاني: المقارنات اللغوية:

1. في الجملة الاسمية.
2. في المبني للمعلوم والمبني للمجهول.
3. في ضمائر الجنس والعدد.
4. في التعريف والتنكير.

خلاصة البحث

وفي الختام، الحق أن كل مسألة تشكل أطروحة هيكلية ضخمة في العربية، تصلح حاضنة لدراسة كبرى. ولكننا سنؤثر الاقتضاب، وسنكلف القارئ الكريم التعاون معنا، بإحالته على المظان والمنطلقات التي تشكل ردءاً معززاً، أو رديفاً مساعداً، لبعض هذه الرؤى ليقف عليها ويستزيد منها.

المحور الأول: أنظار في التجلية والكشف عن بواطن العبقرية في اللغة العربية

هذه الأنظار كامنة في نواميس العربية وسننها، وقد نعرفها بالعفوية ولكن ربما لا نتنبه لها، فالعقاد يوقظ فينا الوعي نحوها، ويجليها بالأمثلة الموضحة، الملزوزة معها في قرن واحد للمزيد من الإقناع، ولئلا يعتد ذلك افتئاتاً، أو افتعالاً، أو تنظيراً تجريدياً، أولياً لذراع اللغة والأساليب قرنها بالأمثلة. وهذه أظهر المسائل في هذا المحور:

1. اللغة العربية اللغة الشاعرة في أصولها المفردة:

يعرض العقاد عوارض حقيقية، جعلت من العربية اللغة الشاعرة، من غير تمحل أو تكلف، ولكنها أسباب فاعلة مقنعة تقع على أكبادنا، كانثيال النبع الرقراق.

يصف العقاد اللغة العربية بأنها اللغة الشاعرة، وليس في اللغات التي نعرفها أو نعرف شيئاً كافياً عن أدبها، لغة واحدة تعرف بأنها لغة شاعرة غير لغة الضاد، أو لغة الإعراب، أو اللغة العربية، ويضيف: إنما نريد باللغة الشاعرة أنها لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء[5].

ويحدد العقاد المزيد من الموضحات للغة الشاعرة بنظرية اللامثال: يقول: فاللغة الشاعرة ليس اللغة الشعرية، فقد تكون الكلمة شعرية صالحة للنظم في موقعها من السمع، ولكنها مع ذلك لا تكون جارية مجرى الشعر في نشأتها ووزنها واشتقاقها، وليست التي يكثر فيها الشعر والشعراء، فإن كثرة الشعراء تتوقف أحياناً على كثرة عدد المتكلمين باللغة[6].

ثم يجترح العقاد جملة من الضوابط والمشخصات، التي هي مقومات اللغة الشاعرة ومؤشراتها ومنها:

1. تركيب الحروف (الأصوات) على حدة.
2. تركيب مفرداتها على حدة.
3. تركيب قواعدها وعباراتها، ونحوها.
4. تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيد.

ثم يشرع العقاد يتكلم عن تجليات هذه المعطيات من رحم العربية، وأنساقها، ويتدرج فيها تدرجاً ينسجم ومستويات الدرس اللغوي، في علم اللغة الحديث[7]. وهذه قراءة لها، ومقاربة، لمعرفة: هل ما تزال إجاباته عن أسئلة اللغة العربية، وما ألصق بها من هنات مزعومة، ما تزال صالحة إلى اليوم.

1. خصائص العربية الشاعرة في تركيب أصواتها المفردة:

فالعربية لها خصائص صوتية مميزة فهي أوفر عدداً في أصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها، فليس هناك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية، وإنما تعتمد هذه اللغة على تقسيم الحروف على حسب موقعها من أجهزة النطق، ولا تحتاج إلى تقسيمها باختلاف الضغط على المخرج الواحد كما يحدث في الباء الخفيفة والباء الثقيلة التي يميزونها بثلاث نقط تحتها بدلاً من النقطة الواحدة، أو كما يحدث في الفاء ذات النقطة الواحدة، والفاء ذات النقاط الثلاث (V) أو كما يحدث في الجيم المعطشة وغيرها[8].

والأصوات في اللغات الأخرى تتنوع بسبب الاختلاف في الضغط على الصوت فينطق (يا) أو ينطق (يو) وبعضها ينطق (تسي) أو (تشي) أو بتثقيل الباء أو الفاء أو الجيم، فهو تنويع آلي مادي لدرجة الضغط على المخرج الواحد، وليس فيها تنويع نطقي. ولكن ثراء العربية في تنويع الأصوات وتنويع مخارجها الموزعة على مدارج جهاز النطق الصوتي. وتمتاز العربية بحروف لا توجد في اللغات الأخرى، كالضاد والظاء، والعين والقاف والحاء والطاء، أو توجد في غيرها أحياناً، ولكنها ملتبسة مترددة لا تضبط بعلامة واحدة[9].

ويذكر حسنات تعدد الأصوات أنها أسعفت العربية في الاستغناء عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين مشتبكين أو متلاصقين، على نحو ما تفعله بعض اللغات عند كتابة الثاء والذال والشين وغيرها[10].

ومن خصائص الأصوات اللغوية في العربية التناسب الموسيقي الفني بين الحروف المتقاربة تناسباً لا مثيل لها في الأبجديات الأعجمية التي تلحق فيها السين بالباء، فالعربية مثلاً – حروف الباء والتاء والثاء، فإن الباء قريبة من مخرج التاء، وإن التاء والثاء لتتقاربان حتى ليقع بينها الإبدال في كثير من الكلمات، وكذلك الحاء والخاء، والدال والذال أو السين والشين، أو الضاد، أو الطاء والظاء، أو العين والغين، أو القاف والكاف، أو اللام والميم والنون، فإن التقارب بينها في النسق يشبه التقارب بينها في اللفظ، كما يشبه التقارب في الشكل[11].

وكلام العقاد على خصائص الأصوات اللغوية، ينم على دقة معرفة وعلم ودراية، وتمرس من كتب بها وبغيرها من الأصوات.

وقد تكلم العلماء على خصائص هذه الأصوات، كلاماً يدانيه كلام العقاد، بيد أن العقاد يمس فلسفة الأصوات، وظواهرها[12].

ويذكر الأستاذ محمد المبارك: إن أول ما يبدو من صفات الحروف العربية توزعها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات. ذلك أن الحروف العربية تتدرج وتتوزع في مخارجها ما بين الشفتين من جهة، وأقصى الحلق من جهة أخرى... فاللغة العربية تمتاز مجموع حروف أصواتها، بسعة مدرج الصوت الممتد من أقصى الحلق إلى الشفتين لتتيح سعة المدرج إلى التنوع والسعة والتوازن والانسجام بين الأصوات[13].

ومع أن الناظر في أصوات غير اللغة العربية قد يجد حروفاً أكثر عدداً، ولكنها محصورة مخارجها في نطاق أضيق، وفي مدرج أقصر، قد تجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين، وما والاهما من الفم أو الخيشوم، في اللغات الكثيرة الغنة، أو متزاحمة في جهة الحلق، وفي كلا الحالين ضيق في الأفق الصوتي، واختلال في الميزان الصوتي، وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الحروف[14].

وكان العقاد قد ألمع إلى هذا بوضوح ودقة[15].

ويلحظ هنا لدى القدماء وربما لدى المحدثين أيضاً اضطراب المصطلح بين الحروف والأصوات، ويبدو لي أن العقاد يدرك أن صورة الصوت هي الحرف، والصوت شيء مختلف عنه.

2. خصائص اللغة الشاعرة في تركيب مفرداتها:

يذكر العقاد أنه لاحظ في تركيب المفردات العربية أن الوزن هو قوام التفرقة بين أقسام الكلام، وأن اللغات السامية التي تشارك هذه اللغة في قواعد الاشتقاق لم تبلغ مبلغها في ضبط المشتقات بالموازين التي تسري على جميع أجزائها وتوفق أحسن التوفيق المستطاع بين مبانيها ومعانيها، فمثلاً الفرق بين ينظر وناظر ومنظور، ونظير، ونظائر، ونظارة، ومناظرة، ومنظار، ومنتظر، وما يتفرع منها هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع، وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن، أو بين قياس صوتي وقياس مثله، يتوقف على اختلاف الحركات والنبرات، أي على اختلاف النغمة الموسيقية في الأداء[16].

فكل صيغة في العربية بوزن، فاسم الفاعل: بزنة فاعل، واسم المفعول والصفات المشبهة، وصيغ المبالغة، والجموع وغيرها كلها تنتظمها أوزان لها إيقاعات وحركات موسيقية تشخص كل

حالة، فالفرق واضح بين قسم وقسّم بتضعيف السين، وبين كبير ومتكبر ومكابرة، وكُبار، وكبّار يشخصها إيقاع وزني خفي عز نظيره في غير العربية.

والخاصية الثانية في مفردات العربية أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العلمية الواقعية في وقت واحد بغير لبس بين التعبيرين[17].

وهذه الرؤية هي الوجه، فمن أمثلة التجاور المجازي والمادي قولنا: (الفضيلة)، فهي في أصلها اللغوي تعني الزيادة، ومثلها كلمة (البلوغ) و(الشرف) ويفرق بين الحقيقة والمجاز من السياق. "وبهذه السليقة الشاعرة تتقبل المفردات اللغوية بأشكالها المحسوسة أو تنفصل عنها، لأنها مفردات في لغة شاعرة يعمل فيها الخيال والذوق كما تعمل فيها الأبصار والأسماع"[18].

والخاصية الإيقاعية في الكلم العربي، وتوظيفها، مسألة نبه عليها القدامى، وأشار إليها المحدثون، ولا تنفك العربية تفرق بين المعاني بالأوزان القياسية المنضبطة ذوات الإيقاعات المتنوعة[19].

وأشار غير عالم إلى الخاصية المجازية والحقيقة في العربية لأغراض كثيرة [21].

وتنجلي القيم التعبيرية لألفاظ اللغة عندما تتوافر القدرة على صياغتها وربطها على نحو سليم، وطبقاً للمقاييس والقواعد اللغوية المتفق عليها في اللغة الواحدة، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة أو خلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها[21]. ولا يتأتى هذا إلا بالانصياع للأقيسة والأوزان التي تخيرتها العربية لبناء مفرداتها. فقراءة العقاد قراءة سليمة للعربية، واستنباط مستقيم يحسن التوفر عليه لدفع الإصر عن هذه اللغة المظلومة.

3. خصائص العربية الشاعرة في نحوها وعباراتها وإعرابها:

يرى العقاد أن العربية لغة معربة للعبارة عن المعاني بالحركات، وقد شاركها هذه الظاهرة لغات أخرى كالهندية والجرمانية واللاتينية وبعض اللغات السامية كالعبرية والحبشية، وبعض اللغات القديمة المهجورة مثل المصرية الفرعونية، إلا أن ثمة خلافاً بين الأعاريب، فالإعراب العربي وافٍ مقرر القواعد يعم أقسام الكلام أفعالاً وأسماء وحروفاً، ولا يزيد الإعراب في اللغات الأخرى على إلحاق طائفة من الأسماء والأفعال بعلامات الجمع والإفراد أو علامات التذكير والتأنيث، وما زاد على ذلك فهو مقصور على مواضع محددة، ولا يصاحب كل كلمة كما يصاحب الكلمات العربية حيثما وقعت من عباراتها المفيدة[22].

ثم يحدق العقاد في تأثير الحركات الإعرابية في مجرى الأصوات فيقول: والإعراب والحركات تجري مجرى الأصوات الموسيقية، وتستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون

في مقاييس النغم والإيقاع[23]. ولها بعد ذلك – أي الحركة الإعرابية – مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير، أو الحذف، لأن علامات الإعراب تدل على معناها كيفما كان موقعها من الجملة المنطوقة. ولها مزية أخرى أنها تسعد الشاعر هذا الإسعاد في تطويع أوزانه لمعانيه، لو أنه نظم قصائد بلغة أجنبية، لأنه لا يظفر في تلك اللغة بالكلمات التي تتساوى فيها أوزان الصرف وأوزان الشعر. ويخلص إلى القول: ولكن اللغة العربية تنفرد بسمة الشاعرية لأنها جمعت على هذا المثال البديع بين أبواب الاشتقاق، وأوزان العروض وحركات الإعراب[24]. وقد جلى جمهرة من القدماء والمحدثين الحركة الإعرابية هل هي للإبانة عن المعاني، أم ضرورة صوتية.*

4. سمات العربية في إيقاعها وأوزانها وعروضها:

يذهب العقاد إلى تفرد الشعر العربي بكماله في توافر القافية، والوزن، وأقسام التفاعيل في جميع بحوره وأبياته، فهو خاصة من خواص اللغة العربية دون غيرها من لغات العالم أجمع، ومنها اللغات السامية، فقد يلاحظ في شعر توافر الإيقاع ولا تلاحظ فيه القافية ولا الأوزان المقررة، وقلما تلاحظ القافية في بعض، وربما لوحظت القافية على غير وزن مطرد، بيد أن الأوزان في الشعر العربي وجدت فناً كاملاً ينتظم شروط الوزن والقافية، وتفسيمات البحور والأعاريض[25].

وذهب العقاد، بعقليته الفذة يتلمس تعليلاً مواتياً، فألفاه في خاصية الأوزان والحركات في مفردات العربية، وفي الحركات الإعرابية المسعفة في حرية الحراك، ثم في جانب آخر، هو الحداء، وهو غناء مفرد موقع على نغمة ثابتة، وهي حركة الجمل في حالتي الإسراع والإبطاء، ولا بد لهذا الحداء الفردي من القافية التي تشخص النهايات، خلافاً للغناء الذي يشترك فيه الكثيرون، ولا بد للغناء الملازم لحركة واحدة من اطراد الحركة ومجاراتها في إيقاعها، وبخاصة حين تكون الحركة الطبيعية نمطاً لا يقع فيه الخطأ والاختلاف كحركة الإبل في السرعة والإبطاء[26].

وفي أعقاب ذلك يؤذن العقاد بهذه الخلاصة رافعاً العقيرة، ومادّاً الصوت:

"فالحقيقة التي لا محل لاختلاف الآراء فيها أن لغتنا الشاعرة قد انفردت بفن من النظم الشعري لم تتوافر شرائطه وأدواته لفن النظم في لغة من اللغات"[27].

وتأسيساً على هاتيك الخصائص المميزة للإيقاع العربي، في الأوزان والبحور، فقد هاجم العقاد الدعوات إلى إلغاء الأوزان ذات البحور والقوافي "لأنها لا تأتي من جانب سليم، ولا تؤدي إلى غاية سليمة، فلا يدعو إليها إلا عاجز في النظم الذي استطاعه الشاعر العامي في نظم الملاحم المطولة... وتلك شنشنة نعهدها في العصر الحاضر من دعاة الهدم من المستترين وراء كلمات التقدم والتجديد"[28].

وهذا الذي يشار إليه هو التطور في بنية القصيدة في أوزانها وفي نظام البيت الشعري، والاستعاضة بالإيقاع الداخلي، ووحدة التفعيلة، وما طرأ من تحولات، لعل العقاد أحس رسيسها منذ ذلك الإبان. ويلاحظ حرارة الدفاع، وقوة الحجة، وصدق النيات، والإيمان العروبي المطلق يذكرنا بطروحات الجاحظ في تمدح العربية، وغيره، في الكشف عن خصائص العربية وسننها[29]. ومع إعجابنا بحماسة العقاد في تشديد النكير على الخارجين على سمت أوزان القصيدة العمودية، فإننا لا نجحد هذا التطور المعجب أحياناً في الإيقاع.

5. اللغة العربية لغة المجاز:

وهو الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري، لأنه تشبيهات وأخيلة، وصور مستعارة وإشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة[30].

ثم يعلل العقاد كثرة المجاز في العربية قائلاً ليست بهذه الكثرة في اللغات الأوروبية، والسبب إما راجع إلى تطاول العهد بين بداوة الأمم الأوروبية وحضارتها، أو لعله راجع إلى خاصة عربية بدوية في التعبير بالتشبيهات المجازية أو الشعرية. ثم يحذر من الإغراق في المجاز المبعد الذي يفضي إلى اللبس في الخطاب الشعري، كقول أحدهم: خصور كالأغصان تنبثق من آكام الرمال، أو قول أحدهم: إنها بدر على غصن فوق كثيب، ويعطي أمثلة مجازية موفقة يدل من كثب على غنى العربية في الحقيقة والمجاز[31].

والحق أنه ما من لغة إلا تنطوي على مجاز كثر أو قل، حسب الحالة النفسية والاجتماعية التي يحياها أهل اللغة. ولا يمكن للخطاب اللغوي إلا أن يسير متنوعاً بين الحقيقة والمجاز، على وفق الحاجة، وذلك في جل اللغات، وليس حكراً على العربية.

6. العربية موئل الفصاحة والصراحة:

يرى العقاد الفصاحة مفخرة. ودليلها العلمي حاضر في العربية، فاللفظ الفصيح هو اللفظ الصريح، الذي لا لبس فيه ولا اختلاط في أدواته. وتتمظهر الفصاحة لديه في عدد من المفاصل اللغوية المشهودة فيها: الفصاحة والصراحة في مخارج الحروف فلا لبس بين مخارج الحروف في العربية، ولا إهمال لمخرج منها، ولا حاجة فيه إلى تكرار النطق من مخرج واحد، وجميع المخارج مستعملة متميزة بأصواتها، وليس في العربية حرف يستخدم مخرجين، أو مختلط من حرف وحرف، وليس في العربية حرف يعبر عنه بحرفين مثل الذال والثاء اللذين يكتبان مما يقابل عندنا التاء والهاء (th) ويتغير النطق بهما في مختلف الكلمات.

ومن شروط الفصاحة والصراحة تجنب اللبس في الحركات الأصلية، كما يتجنب اللبس في الحركات الساكنة، فلا لبس بين الفتح والضم والكسر والسكون.

ومن أسباب هذه الفصاحة التطور الطبيعي في جهاز النطق العربي وهي استخدام أصوات الحلق التي أهملت جميعاً في كثير من اللغات لسبب من الجو والمناخ الذي يسر للعربي أن يفتح صدره للهواء وما تيسر ذلك لأبناء البلاد الباردة، وبعضها يشبه أصوات الإبل والضأن والسباع في الفلوات مثل القاف والخاء والعين[32]. وهذه المسألة تقتضي رجع النظر.

وهذه لفتات فنية علمية متوجهة، تبصرنا بمواقع الجمال والدقة، والفصاحة والصراحة في لغتنا، فما أكثر ما يتلبس المرء من فضائل لا يلتفت إليها إلا غيره، لأن أحدنا يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذعة في عينه.

7. العربية تجسد نفسية أهلها:

قصد أن العربية صورة من أهلها، تتراءى لنا فيها صفاتهم وصفات أوطانهم، كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربي، من كلماتهم وألفاظهم وأساليبهم في الواقع والمجاز. وينفحنا العقاد بجملة من المعطيات التي تنهض لتدلل على صدق أطروحته.

1. الكلمات التي تدل على معنى الجماعة في الرحلة والرعاية، ومنها الأمة، وهي الجماعة التي تؤم مكاناً واحداً، أو تأتم بقيادة واحدة ومثلها الشعب، والطائفة، والقبيلة، والفصيلة، والفئة، والجيل، والبيئة، والنفر، والقوم. كلها تؤدي معنى الجماعة والحركة الجماعية.
2. كلمات الأمكنة: المنزل حيث ينزل، والبيت حيث يبيت، ومنها الموقع والمرجع والمأوى، والمسافة. والقصر، مقصور على بانيه، خلافاً للبيوت والخيام التي تقام في كل مكان.
3. الكلمات التي تدل على العشيرة أو على الرابطة الاجتماعية بين الآحاد. الصاحب من يمشي معك في السفر، والرفيق الذي يؤخذ مع الطريق، والزميل من الزمالة والقريب من اقتراب منزله، والعدو الذي يعدوك، وهو الخصم.
4. ومنه في المجاز: المذهب للطريقة الفكرية، والمنهج والمشرب والنحو والمصدر والمورد والمقام والمقامة، والسير والقصة، وهي من قص الأثر، والأثر هو المخلفات وهي من بقايا المواطئ والأقدام.
5. ومن الدلالات المجازية الجماعية: الجيش من جيشان الحركة، والجند وأصلها الجند (بفتحتين) وهي الأرض الغليظة المنيعة.
6. ويشير العقاد إلى أن دلالة الكلمة على شيء من أحوال العرب في مادتها تشي بهويتها، أعربية هي أم دخيلة، ومنها كلمة (القلم) قالوا أنها مأخوذة من كلمة (كلموس) اليونانية. فلو

رددناها إلى القلم أو التقليم أو القلامة في العربية الأصيلة، لعرفنا أصالتها العربية، وهي تنم على الشق والقطع ومنها: قلم وقحم، وقسم وقصم وقضم، وقرط وقطم[33]. وهي نظرات ثاقبة في مجال الحقول الدلالية العربية.

8. فكرة الزمن في العربية:

هذه مسألة مهمة في العربية، وفي الذهنية العربية. تنم على ارتقاء اللغات في دلالتها الزمنية في الأفعال، وسائر الألفاظ. وقد وجهت تهمة للعربية: وقد شاع بين اللغويين المختصين بدراسة الألسنة أن اللغات السامية، ومنها العربية، ناقصة في دلالة الألفاظ على الزمن، ومنطلق هذه الدعوى عن العربية في عقول المتعجلين توهم أن هذه اللغة نشأت على صحراء خاوية لا قيمة للوقت عند أهلها، لكنه وهم لا يثبت على نظرة محققة في التاريخ ولا في اللغة، ولا نحسب أن لغة نفهمها قد اشتملت على وسائل للتمييز بين الأوقات، كما اشتملت عليها اللغة العربية، سواءً نظرنا إلى ضرورات سكانها، أو نظرنا إلى تعريف أفعالها وكلماتها[34]. ثم يحشد العقاد جملة من المؤيدات لرده، يتكلفها بدقة، وواقعية من اللغة نفسها:

1. تقسيم الليل والنهار إلى لحظات لها شأنها في حياة سكان البادية. منها ما هو صالح لبدء المسير، أو للراحة القصيرة، أو للرحلة الطويلة، ومنها ما لا يصلح إلا للسكينة والاستقرار. فمنها: البكرة والضحى، والغدوة والظهيرة، والقائلة والعصر، والأصيل والمغرب، والعشاء والهزيع الأول من الليل، والهزيع الأوسط، والموهن، والسحر، والفجر والشروع. ويكاد التقسيم هذا ينحصر بالساعات.
2. كل موسم من مواسم السنة له شأنه في المرعى والانتجاع، أو التجارة أو الأمان، فوجدت أسماء المواسم والفصول والحول والسنة والعام، ولكل موضعه في التعبير، ووجدت في اللغة كلمات: اليوم والليل والنهار.
3. ووجد كلمات للأوقات على حسب الطول والقصر في المدة، فالمدة شاملة لجميع المقادير، والفترة للمدة بين وقتين، والحين للزمن المعين، والعهد للزمن المقترن بمناسبته، والزمن للدلالة على الجنس، والدهر للمدة المحيطة بجميع الأزمنة والعهود. وثمة البرهة والهنيهة وغيرها[35].
4. وقد تعبر اللغة عن الزمن بالأفعال، أو بالكلمات الدالة على الزمان أو بالأدوات أو بأساليب التعبير، وأنماط الجمل[36].

والعربية توظف صيغ الفعل الماضي للتعبير عن الماضي بدقة، أو ما قبل الماضي مثل قولنا: عفا الله عما مضى، أو الزمن ما بعد الماضي كقوله تعالى: (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى).

والماضي القريب، كقولنا: قد قامت الصلاة.

والأفعال وحدها لا تعبر عن الأزمان بدقة، بل بما يكتنفها ويضام إليها من أدوات قبلية، مثل أدوات الشرط، أو السين أو سوف، أو أدوات الجزم، فللفعل مع الأداة التي تكتنفه أثر حاسم في تبين الدلالة الزمنية، وتؤدي العربية الزمن بصيغ أشباه الأفعال، والمشتقات، والمصادر وغيرها[37].

ويختم العقاد هذه المسألة، ويدفع هذا التفحيش الباطل بقوله: ويحق لنا أن نقول: إن هذه اللغة العربية لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه، بطرائقها المتنوعة، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن في عصرنا هذا وفيما يلي من عصور[38]. وكان من أفضل من تولى درس الزمن في اللغة تمام حسان.**

9. العربية أقدم اللغات:

العقاد لا يشير إلى أن العربية أقدم اللغات زعماً وافتئاتاً، أو مباهاة، ولكنه في صنيعه هذا يستطيع أن يحدد الأصالة والفرعية، بين اللغة العربية واللغات الهندية الأوروبية، على نحو صنيع الشيخ محمد أحمد مظهر الذي كان أصدر بحثاً رد فيه كثيراً من الكلمات الأجنبية إلى أصول عربية، أصاب في بعضها، وجانبه التوفيق في بعضها. وقد وقع لنا بأخرة كتاب عمد صاحبه إلى مثل ذلك الصنيع فأرجع عدداً ضخماً من المفردات في الإنجليزية إلى أصول عربية، للتشابه في ظاهر النطق أو الأصوات[39]، بعضها فيه وجه مقارب مقنع، وكثير منها فيه التهافت والاضطراب والتعسف في التأويل. وهي مسألة جدلية فيها تجاذب وتراسل ورجع نظر.

ولكن العقاد يشير بموضوعية إلى عجز العلماء عن معرفة المفردات أو الأساليب، في أصالة عروبتها، ويحتكم إلى جملة معايير وضوابط يتهدى بها، منها:

أسماء الحيوانات المستأنسة أو المتوحشة، فالعرب أمة بادية لا يعقل إلا أن تعرف أو تستأنس هذه الحيوانات، فلا غرو أن أسماءها ترتد إلى العربية مثل: النسر من الجرح، والصقر من الحدة، والغراب من الغربة، والفرس من حدة النظر، والحمار من لونه الأحمر، والبغل أي المدخول والمخلوط في النسب، والجمل من الضخامة، والخروف من موعده في الخريف، فهذه الأسماء ونظائرها لا يعقل أن تكون في أصلها إلا عربية. ثم إن من المؤشرات على قدم العربية الأبجدية العربية التي توافقها الأبجدية اليونانية بترتيبها حرفاً حرفاً ولكن المؤرخين الأوروبيين المتعصبين لثقافتهم الأوروبية يرون أن الساميين هم الذي اقتبسوا هذه الحروف من مصدر أوروبي قديم، وظلت هذه الجدلية قائمة من غير جواب لولا أن أسماء الحروف عرفت بمعانيها وأشكالها ولم يعرف لها معنى ولا شكل يعود بها إلى لغة من لغات الأوروبيين كالباء من البيت،

والجيم من الجمل، والعين من العين، والكاف من الكف، والنون من النون أو الحوت[40]. وهذه الآراء على طرافتها فإنها يعوزها الإثبات والتحقق.

ويختم العقاد هذه المسألة بقوله: وعلى أية حال، فإن قدم اللغة العربية من العراقة التي تحسب لها كما تحسب لكل كائن حي عريق، والذي يعنينا هو جانب التمام والنضج بعد طول التطور والتقويم[41].

10. العوامل النحوية في العربية:

تكلم العقاد على جملة من المسائل النحوية اللغوية الصرفة، وكانت له فيها بدوات مجليات، لم يكن يقرأ أو يقارب هذه المسائل بطرائق النحاة التقليدية، ولكنه درسها في العمق نافذاً إلى الخصائص العامة، ومستنبطاً جملة من الظواهر، ودافعاً في الوقت نفسه غوائل التهم، والتشنيع على العربية، والتشكيك في قدرتها.

ومنها العامل النحوي، الذي تتقوم منه نظرية النحو العربي برمتها، مرد عليها أهل العربية، ويقر العقاد بنظرية العامل الأصيلة، ويأخذ مثلما أخذ غيره على النحاة في الشطط في التأويل والتكلف للعوامل النحوية. ويأخذ بيد إبراهيم مصطفى الذي ثار على نظرية العامل بأخرة، وفي تقاسيمه الحركات الإعرابية، فالضمة علم الإسناد، والكسرة علم الإضافة، والفتحة حركة مستحبة، مستخفة ولكنها ليست علماً على شيء، مع أن النحاة أشاروا إلى أن النحاة جعلوا الفتحة علماً للفضلات الخارجة على الإسناد، وعلى الإضافة. وكان العقاد ناكف إبراهيم مصطفى في أطروحاته التي منها التدليل على الفرار من السكون إلى الفتحة في مثل: حجرة – حجرات، غرفة – غرفات، وقبلة – قبلات، وظلمة – ظلمات فحركوا بدلاً من التسكين. لأن السكون هنا لا يستثقل وإنما يستثقل الانتقال من التحريك إلى التسكين ثم من التسكين إلى التحريك، وكذلك يقولون: القطن والغصن والعمر والكتب والأسد، لأن الاستمرار في حركة واحدة أيسر من الانتقال منها إلى تسكين ثم العودة بعد التسكين إلى التحريك[42].

والتسهيل من سنن العربية، إن في النطق، وإن في غيره. فقوله قبلات بتسكين الباء يتولد مقطعان طويلان. أما قُبُلات فيتولد مقطعان قصيران ثم طويل، وذلك أروح للمتكلم.

ويفند العقاد رأي إبراهيم مصطفى في أن الفتحة أخف الحركات، في قوله: يزعم إبراهيم مصطفى أن الفتحة القصيرة أو الطويلة، لا تكلف الناطق إلا إرسال النفس حراً، وترك مسرى الهواء أثناء النطق بلا عناء في تكييفه[43].

فيقول العقاد: إن الضمة لا تكلف الناطق شيئاً على الإطلاق، إذا كانت الفتحة تكلفه إرسال النفس حراً، فإن الضمة هي حالة انطباق الشفتين عند انتهاء كل كلام، وهي كذلك حالة الشفتين قبل كل كلام(44).

ويجترح العقاد تعليلاً من لدنه، للفتحة: إن الفتح كان علامة على الابتعاد بحركة من الفم تؤكدها حركة من اليد إلى الفضاء، ملتمساً تعليلاً من اللغات السامية ما يؤيد هذا التخمين، ولا سيما الحبشية(45). وهو تعليل ينم على عقلية مدققة وفكر ثاقب، إذ لا يستقيم لذي حجر أن يرى العقاد الإساءة ويتركها غفلاً، بل نلتمس له هذه الحماسة والحرارة في الذود عن حياض العربية، من قبل أنه عاش في زمن الاستعمار الظالم، فكانوا يومئذٍ شغوفين بصوغ المطاعن، ويترمون التفحيش على العربية وأهلها، ورميها عن قوس واحدة، بالضعف في الدلالة على الزمن، والتخلف وعدم الأصالة، وكلها مطاعن لا خلاق لها من مصداقية.

على أن نظرية العامل قد تعرضت لهزات ومناكفات بدءاً من قطرب، رحمه الله مروراً بابن مضاء القرطبي، إلى إبراهيم مصطفى، ولكن على كثرة التفحيش فإن أحداً لم يقدر على الإتيان ببديل شامل مقنع للعامل النحوي في العربية(46).

11. قضية التناسب بين الأصوات والمعاني، في العربية:

يذهب العقاد إلى أن ثمة تناسباً بين الأصوات اللغوية في الكلمة والمعنى الذي تؤديه الكلمة في السياق، ويعده من ذوقيات اللغة العربية وطرائق تركيبها، وأسعد المتلقي بضروب من الأمثلة عزز فيها مقالته، واستبرأ ذمته، فالفاء يدل على الإبانة والوضوح في مثل: فتح، فضخ، فرح، فلق، فجر، فسر. وحرف الضاد يشي بالشؤم: ضجر، ضر، ضير، ضجيج، وضوضاء، ضياع، ضلال، ضنك، ضيق. أما صوت الحاء فيبشر بأشرف المعاني وأقواها: حب وحق، وحرية، وحياة، وحسن، وحركة، وحكمة، وحلم، وحزم(47).

ويبلور العقاد جملة من المشخصات لهذه المسألة:

1. إن ثمة ارتباطاً بين بعض الحروف ودلالتها في الكلمة في النص.
2. إن الحروف لا تتساوى في هذه الدلالة، ولكنها تختلف باختلاف قوتها وبروزها في الحكاية الصوتية.
3. إن العبرة بموقع الحروف من الكلمة لا بمجرد دخولها في تركيبها.
4. قد يقع الاستثناء في الدلالة متأتياً من اختلاف الاعتبار والتقدير، ولا يلزم أن يكون شذوذاً في طبيعة الدلالة الحرفية.

ثم يصدع العقاد بهذه الأطروحة: ولا نعرف بين اللغات الكبرى لغة أصلح من لغتنا العربية لهذا الباب من أبواب الدراسات اللغوية[48].

والحق أن هذه مسألة خلافية جدلية، فيها تجاذب وتراسل بين السادة العلماء، ثم هي لا تطرد أبداً، بل ترد عليك مصادرات، وشذوذ يفضي إلى الزعزعة، ولكن فيها مساحة واسعة من الصحة، تصلح للدرس والتجلية. وهي مسألة نظر متقادمة توفر عليها القدماء والمحدثون، منذ الخليل، رحمه الله، ومسألة صر وصرصر، ومتابعة تلميذه سيبويه وربطه بين أوزان المصادر ومعانيها، وقالة ابن جني في: تعاقب الألفاظ لتعاقب المعاني، وباب: إمساس الألفاظ أشباه المعاني، وجمهرة من المحدثين، بعضهم أيد، وبعض فند[49]. والمسألة تثير الفضول العلمي، وتقتضي التوفر عليها. وللكاتب تجربة في بحث متواضع: "الإعجاز الصوتي في قصار الصور"، لحظ فيه تباين الأصوات في السورة الواحدة بتباين المعنى. فالأصوات الهادئة في إيقاعها والهامسة لامست معنى مشابهاً: الحمد لله رب العالمين، قل أعوذ برب الناس. وأصوات الشدة والقوة شاكلت المعاني القوية والخوارق والمعجزات: قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب، ثم يلين الصوت مع لين المعنى: ومن شر النفاثات في العقد، لأن النفث في العقد مقدور عليه. ثم يلين أكثر: ومن شر حاسد إذا حسد، إلى درجة المخافتة من قبل الحسد سهل لمن سمت نفسه إليه. وتلمح الحزن من غير شية في قوله تعالى: إذا زلزلت الأرض زلزالها، من هذه الآهة في المدة الهائية، والتكرار في قوله تعالى: إنا أنزلناه في ليلة القدر. والمتابعة لا تخلو من طرافة ملذة، ولكنها، أحياناً، لا تطرد تماماً، بل يواجهك تفلت وشذوذ، ليس يسيراً.

12. الدعوة إلى التيسير:

يحس العقاد، كما يحس غيره، إجفالاً من بعض المستويات في اللغة العربية مثل النحو، أو الرسم الإملائي، أو الكتابة فدعا إلى:

أ. التيسير في الكتابة، والتيسير مطلوب حيثما تيسر فلا يحسن أن نستصعب وبين أيدينا باب من أبواب اليسر نطرقه على أمل قل أو كثر، وإنه على حب الأنفس له لأدب من آداب الإسلام في أمور الدين والدنيا.

والتيسير سنة عرفناها في موروثنا، عمد إليها علماؤنا الأفاضل، وهم يؤرقهم هم العربية، فنذكر ثم نشكر نقط الإعجام، على يدي نصر بن عاصم الليثي، أو غيره ونقط الإعراب لأبي الأسود، وصنيع الخليل في الحركات الإعرابية[50].

ودعوة العقاد إلى تيسير الكتابة دعوة مطلقة، عائمة، ليست مقرونة بآليات أو حيثيات فنية ضابطة، ولكنه يحذر من ركوب موجة إلغاء الكتابة بالعربية إلى اللاتينية وهي من الدعوات

التسهيلية المضللة، ظاهرها الرحمة، وباطنها الفساد والضلال. ويعطي أمثلة مشابهة لعيوب الكتابة في الإنجليزية، فما أكثر الأصوات التي تكتب ولا تنطق، وما أكثر الأصوات التي تنطق بخلاف ما نكتب: فحرف (T) ينطق تاء، وثاء، وذالاً، وشيناً وسيناً. وحرف (S) أو حرف (g) عندهم له مناطق متعددة ومحيرة[51].

ب. تيسير في النحو: والعقاد يعلن مثل إعلان الجاحظ قبلاً، أن النحو وسيلة لا غاية، فينبغي الترفق في أخذ الناس به يقول العقاد: أما النحو فهو في أساسه صناعة تيسير كسب السليقة، وبخاصة في هذا المركب الصعب، أمر لا يختلف فيه من يطلبون له اليوم مزيداً من النجاح[52]. ودعوته إلى التيسير هذه يحذر فيها مثلما حذر غيره، من الانحرافات والانتقاض على الموروث والثوابت الرواسخ. فمن ضياع الجهد إذن أن نحاول التيسير بمحاكاة الأبجديات الأوروبية، أو بمحاكاة قواعدها في التركيب والاشتقاق والإعراب، ومعرفة الحروف وقواعد الإملاء. فالطالب في الإنجليزية مضطر إلى حفظ مئات الأفعال لشذوذها في التصريف بين المضارع والماضي، واسم المفعول والشذوذ في قواعد الجمع، ومئات من الصفات والظروف، لأنها لا تجري على قاعدة مطردة في الاشتقاق[53]. وهي حجج ملجمة، ودعوة إلى الانفتاح حصيفة حكيمة.

ج. تيسير في التعريب: والعربية، في نظره قابلة لاستيعاب فكر الآخر وثقافته، بالترجمة الدقيقة، والعيب ليس في اللغة العربية، ولكنه في المترجمين الذين تعوزهم المعرفة الكافية في اللغتين[54]. وهذه الدعوة الكريمة من العقاد إلى المزيد من التعريب، والترجمة، تنفح العربية بالقدرة على المواكبة، وتسعف أبناءها في معرفة الآخر، والمثاقفة معه، بالأخذ والإعطاء.

13. الصفة في اللغة العربية:

يتحدث العقاد عن موضوعين مهمين في النحو العربي هما: الصفة في العربية، والظرف، والعقاد، ليس من مقصده أن يسطر لنا درساً في النحو مألوفاً، فذاك متاح في النظر في المظان، ولكنه يتمدح العربية، فيعرض مزية خاصة بها تحلها في أعلى عليين، كيما تقنع أبناءها العققة والبررة أنهم يستنيمون إلى لغة عظيمة قمينة بالحفاظ. فالعقاد يتحدث هنا عن النحو، وفي النحو، وللنحو، حديث العارف المتمكن، الفيلسوف القابض بأزمة الأمور، يجلي تارة، ويروج، أو يرافع ويفند.

فالصفة في العربية، لدى العقاد، من أقوى الدلالات على ضبط الأداء في لغة من اللغات، ومبلغ التطور في اللغة في تقدير الصفات على الموصوفات ولا بد من المطابقة بين الصفة

والموصوف، وإلا كان النقص في تكوين الصفة وتطبيق شروطها نقصاً أصيلاً في وسائل الدلالة اللغوية، وقد تحققت المطابقة في العربية على وجه التمام، وذلك ملموح في الظواهر الآتية:

1. الصفة تابعة للموصوف، في العربية، مطابقة له في العدد، وفي الجنس، وفي التعريف والتنكير، وفي مواقع الإعراب. وهذه التبعية لا تطرد في الإنجليزية إذ تأتي الصفة سابقة للموصوف فيقال: واحد عظيم رجل، ويقال: عظيم نساء بدلاً من: نساء عظيمات. ولا تتغير الصفة تبعاً لتغير مواقع الإعراب عندهم(55). نقول: قد تتقدم الصفة على الموصوف في العربية قليلاً، نحو فلان كريم الخلق، واسع المعرفة، طويل النجاد، كثيرة الرماد. لأسباب نفسية مألوفة.
2. اللغة العربية تفرق بين الصفة الملازمة والصفة المتعلقة بالأفعال والمرات، ومنها: (كريم) و(معطاء) فبينها فرق في الصفة والمادة والدلالة. (فكريم) صفة ثابتة فهي صفة مشبهة، و(معطاء) صورة من صور الكريم، وليس كريماً على الدوام، فهي صيغة مبالغة. ومن هنا صيغ اسم الفاعل والصفة المشبهة، وصيغ المبالغة، وكلها صيغ تصب في اختلاف الدلالة(56).
3. التبعية في الصفة للموصوف في التأنيث، بالمعنى أو باللفظ أحياناً ما لم يقع لبس. ويشير إلى حالات إسقاط تاء التأنيث، ليس عن قصور في اللغة، أو فوضى، فيقال حصان وفرس، والظليم والنعامة، وأم قشعم. وقد تلجأ العربية أحياناً إلى التعميم في التفريق بين المذكر والمؤنث فيقال: رجل عدل وامرأة عدل، فالعدل واحد في جميع الحالات(57).
4. وتظهر دقة العربية في منطقها الخاص في مواضع التسوية بين التذكير والتأنيث في بعض صيغ المبالغة مثل: رجل راوية وامرأة راوية، وامرأة متلاف ورجل متلاف، ورجل صبور وامرأة صبور، فإن في المبالغة نوعاً من الكثرة والزيادة يلحقها بكثرة الجمع، ويجري عليها ما يجري على كل جمع مؤنث من قبيل: قالت الرجال وقالت النساء(58).
5. وثمة كلمات في العربية تؤنث وهي خالية من علامات التأنيث لا يعجز اللغة عن تمييزها بعلامة من علاماتها الكثيرة، بل هي متروكة لاعتبارها أصلاً من المؤنثات المجازية أو المذكرات المجازية، فالسبب راجع إلى التصور النفساني الذي يوحي إلى الذهن وإلحاق بعض الأشياء بهذا الجنس أو ذاك(59).

ويختم العقاد هذه الملاحظ الفلسفية في سنن العربية قائلاً:

وهذه مزية الصفة عندنا نضيفها إلى المزايا الأخرى التي تستحق بها العربية عندنا وعند غيرنا من المنصفين أن تسمى بأم اللغات(60).

14. الظرف في اللغة العربية:

ويقصد بالظرف المعنى الواسع من الأحوال والأشكال، وليس الظرف الإعرابي وحده.

1. يذكر العقاد أن كثرة الظروف في اللغة مؤشر على سعة الإدراك، وشمول النظرة. فالمتكلم بهذه اللغة يدرك الحوادث على كل صورة من صورها، ويدير النظر على كل وجه من وجوهه، ولا يقصرون إدراكهم للحادث على صورة واحدة، يكتفون بها ثم لا يخطر لهم بها، على حسب تعدد جوانبها، وتفاوت وجهات النظر إليها.
2. قلة الظروف في اللغات السامية، وكثرتها في اللغات الهندية الجرمانية، وهذا دليل على اختلاف أصيل في النظر إلى الأمور والإحاطة بجوانب الحوادث، واحتمال الظروف الممكنة، لكل حادث منها، غير ظرفها الواقع الذي هي فيه. وهذا، بالطبع ينسحب على العربية، في هذه التهمة.
3. لا جدال في كثرة الظروف في اللغات الهندية الجرمانية، وقلتها في العربية، وتكوين الظروف في لغاتهم سهل مستطاع، وليس الأمر كذلك في ظروف اللغة العربية [61]. هذه جمهرة من التهم، وإنصاف وموضوعية من العقاد، لكن التهم في التنقص في العربية لا يسلم به العقاد، ولا يقبله، بل ينبري للدفاع عنه فيقول:

إن الكلمات التي تسمى ظروفاً في إعراب اللغة العربية قليلة بالقياس إلى اللغات الهندية الجرمانية، ما في ذلك خلاف. إلا أن العقاد يستدرك قائلاً: ولكن الوسائل اللغوية التي تؤدي معنى الظرف أو فر وأوسع في لغتنا العربية، من كل لغة هندية جرمانية نعرفها أو نستطيع مراجعتها، ومن هذه الوسائل:

1. تتدرج اللغة العربية من اختلاف كيفيات الفعل ودرجاته، وذلك متحقق من وفرة الأفعال التي تؤدي معنى كل فعل على أشكاله، فإذا تحدث المتحدث عن هبوب الريح ففي وسعه أن يقول: نسمت، أو خفقت، أو سرت، أو هبت، أو عصفت، أو قصفت، أو تهزمت، إلى أشباه هذا الترتيب في القوة والتأثير، فيستغني عن قول القائل بالهندية الجرمانية: إنها هبت بقوة أو هبت بلطف، أو هبت بصوت عنيف، سواءً أدى هذا المعنى بإضافة علاقة الظرف، أو بإلحاق الجار والمجرور [62].
2. التضعيف والزيادة عندنا يؤديان معنى الفعل على درجات وأشكال يستغني بها المتكلم عن الظرف، فعندنا مثلاً: فتح وفتّح، بتشديد التاء، وفتح واستفتح، وفاتح، وما يلحق بها من الأفعال المطاوعة تغني المتكلم العربي عن أداء درجات الفعل، وأشكاله بإضافة علامات الظرف إلى الصفات أو إلى الأسماء.

3. ومن وسائل العربية صيغ التفضيل مثل: جميل، وأجمل، والأجمل تغني المتكلم عما يماثلها، أو يقابلها، من أدوات المفاضلة بين الصفات أو الأفعال، فالفرق بين مفضل ومفضول تغني عن بعض الظروف، كما يغنينا عن بعضها كل فرق عندنا بين اسم المفعول والصفة المشبهة، وبين الصفات العارضة والصفات الثابتة[63].
4. ومن وسائلنا أيضاً في اجتراح الظروف الحال، المفرد، أو الجملة، أو الجار والمجرور. فأنت تقول: أقبل مبتسماً، وأقبل يبتسم، وأقبل وهو يبتسم، وأقبل وهو مبتسم، وأقبل في ابتسام، وتترقى بالابتسام، مع قوة الفعل من ابتسم إلى هش، إلى استبشر، إلى تهلل، وإلى ضحك، إلى قهقه، إلى أغرب ضاحكاً، إلى عدد جم من الكلمات قابلة مثلها للتعبير عن مختلف الظروف والدرجات والأشكال[64].
5. ومن وسائل عربيتنا في التعبير عن الظرف المفعول المطلق موصوفاً أو غير موصوف كقولنا: اندفع اندفاعاً لتوكيد قوة الاندفاع، أو اندفع اندفاع الأسد، أو موفقاً أو مطرداً، أو متلاحقاً، للتعبير عن الظروف التي يعبرون عنها بالمقاطع أو الإضافات[65].
6. ومن وسائل العربية المفعول معه، وهو ظرف بكل معاني الظرفية في الهندية الجرمانية، وهو تعبير عن ظرفية المكان أو الزمان[66].

وهذه لفتات لغوية قيمة، تنم على نفاذ فكر العقاد إلى عروق العربية ومفاصلها بالتمثل الواضع، ونفاذ إلى تراتيب اللغة الأخرى، وهو نموذج للغوي العالم الجاد المخلص، الموضوعي، ينبغي أن يحتذى، وتحنى لصنيعه الكريم جباهنا.

ثم يخلص العقاد: وليس باللازم في لغة من اللغات أن يكون للظرف باب واحد من أبواب الأجرومية، أو علاقة واحدة من علاقات النحت والاشتقاق، وكل ما يلزم اللغة ويحسب عليها أن تؤدي معنى الظرفية بعبارة من عباراتها الصحيحة... ونظرة عاجلة إلى قصة يقصها عربي عن إنسان أو حادث أو مكان تكفي لتصحيح الخطأ السريع، فبالقصة تلك تدرك من كلماتها حرص العربي على تحقيق الظروف بجميع ملابساتها وعوارضها الزمنية أو المكانية أو النفسية، وذكر الهيئة أو الملامح ومنهج الحديث وغيرها من الكلمات التي تنم على توصيف الهيئة والظرف بدقة[67].

المحور الثاني: المقارنات اللغوية (الدراسات التقابلية)

تعني المقارنة أن الدارس ينبغي أن يكون من العارفين في اللغتين وهذا متحقق لدى العقاد، رحمه الله، تمام التحقق، آية ذلك هذه المقارنات الممتدة بين اللغتين العربية والإنجليزية، كما يدلل على أن العربية لا تقل شأناً، بل تتساوى، وربما شأت في مفرداتها وأساليبها، اللغات الأوروبية، بالإجابة عن الأسئلة اللغوية التي تحوك في الصدور، يقول د. أحمد حنيف: كل حكم مبني على التقليد أو النقل لا قيمة له، فلا بد من أن نعرف شيئاً من اللغات الأجنبية ونوازن بينها وبين اللغة العربية[68]. على ألا يؤدي ذلك إلى هذا الانبهار المبالغ فيه بالأجنبية والذي نتج عنه ما نلاحظ من مداخلة بينهما – أثناء الحديث – لدى بعض الفئات من أبناء المجتمع في حياتهم اليومية[69]. بل قد يؤدي إلى أبعد من ذلك، إلى نشوء ما يسمى اليوم، اللغة العربيزية إلى خليط من العربية والأجنبية، مما يجلعنا نحس خيبة ونرتكس إلى أسف.

لكن العقاد كان خلاف ذلك إطلاقاً، فما أتقن الأجنبية ليستعلي على العربية البتة، بل ليعضد العربية ويعززها ويجسم تفوقها، فأقام مقارنات في أساليبها مع الإنجليزية، أو غيرها في أطر الجملة الاسمية، والبناء للمعلوم والمجهول، وفي ضمائر الجنس والعدد، والتعريف والتنكير.

1. في الجملة الاسمية:

يذكر العقاد أن الجملة في اللغات الأوروبية اسمية يتقدم فيها الفاعل على الفعل، ولا يتقدم الفعل إلا شذوذاً في حالات قليلة جداً، يحسبونه عارضاً من عوارض القلب. أما العربية فيتقدم الفعل ويتأخر الفاعل، ويعلل بعض الغربيين لذلك، وهم من أصحاب نزعة التصوف والتحليل النفساني الحديث، يردون تأخير الفاعل في لغتنا إلى نوع من (القدرية) الشرقية التي تحيل كل شيء إلى الغيب، وبعضهم يقول: إنما هو اختلاف في درجة الشعور بالثبوت للشخصية الإنسانية، فإن ثبوت هذه الشخصية ملازم للتفكير الأوروبي ولكنه ضعيف عند الشرقيين يسري ضعفه من الفكر إلى اللسان، كما يظهر من غلبة الجملة الاسمية على ألسنة الأوروبيين وغلبة الجملة الفعلية على ألسنة الناطقين بالضاد[70].

وقد ذكر علي الجارم أن الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير في التعبير لأن العربي جرت سليقته، ودفعته فطرته إلى الاهتمام بالحدث في الأحوال العادية الكثيرة، وهي التي لا يريد فيها أن ينبه السامع إلى الاهتمام بما وقع منه الحدث أو التي لا يهتم هو فيها بمن وقع منه الحدث، فالأساس عندهم في الأخبار أن يبدأ بالفعل فيقول: عدا الفرس، ورعت الماشية، وعاد المسافر[71].

ويرد عليه الدكتور إبراهيم السامرائي، على نحو مارد عليه العقاد وعلى غيره فقال السامرائي: أنى له أن يتحقق هذا الاستقراء، وكيف يتحقق وكلام العربية المأثور كثير لا يظفر به إنسان، والذي ضاع من كلامهم أكثر[72].

وهذا يذكرنا بقالة أبي عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله[73]. وكرر اطروحة الشيخ علي الجارم الدكتور مهدي المخزومي، ولم يأبه بصحتها، أو تحققها[74].

ولكن العقاد يرد هذه الفرية من منظورين:

الأول مهاجمة الآخر، والكشف عن هناته وعيوبه، فالقول بتغليب الفاعل على الفعل في اللغات الأوروبية غير صحيح، فالأوروبية لا تخلو من فعل البتة، ويجوز أن يخلو مكان الفعل الظاهر من الجملة العربية، وتفيد معناها المستقل، مع تقديره أو تقدير ما ينوب عنه، ثم إن الفاعل لا يكون دائماً شخصية إنسانية يدل تقديمها على ظاهرة الثبوت لهذه الشخصية، بل قد يكون جماداً أو نباتاً أو معنى من المعاني التي يضعها العقل العربي بموضعها الصحيح، فقولنا: الماء عذب، والهواء طلق، لا يدل تقديمها على توكيد ظاهرة الثبوت للشخصية الإنسانية، ولا فرق فيه بين القدرية الشرقية والواقعية الأوروبية بالنسبة إلى الفاعل الظاهر أو المستور[75].

والمحور الثاني نابع من العربية نفسها فالجملة العربية منها الاسمية، ومنها الفعلية يوظفها المتكلم على وفق حالة المتكلم أو السامع، أو الموقف. ولكن الأوروبية الجملة فيها مقصورة على الاسمية، وهذا نقص منتقد وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء، الذي يحسب للعربية، لا عليها، وأن الفاعل لا يكون في كل جملة إنساناً أو كائناً حياً فلا محل هنا للقول بإنكار الشخصية الإنسانية[76].

2. المبني للمعلوم والمبني للمجهول:

ويقارن العقاد أساليب العربية في البناء للمجهول، بالأساليب لدى اللغة الأوروبية، فيثبت للعربية التفوق، من قبل أنها تستعمل ثلاث صيغ للبناء المجهول:

1. صيغة فُتح الباب أو يُفتح، ويقابله في الإنجليزية: إن الباب يكون مفتوحاً، أو إن الباب صار مفتوحاً، وهو تعبير يخلو من دقة صيغة العربية، لأنه أقرب إلى وصف منه إلى إخبار[77].
2. ثمة حال تنفرد بها العربية للبناء للمجهول وهي صيغة: (انفعل).
3. وثمة حالة ثالثة، تتمظهر في أفعال بعينها لا ترد إلا على هذه الصيغة وتدل على الإصابة بالعلل والطوارئ التي لا عمل فيها لإرادة المصاب، في الغالب، أو يكون المصاب فيها أبداً

بمقام نائب الفاعل، ولا يكون فاعلاً مريداً لفعله، ومن هذا القبيل: زُكم، وصُرع، وهُزل، وفُلج، وما جرى مجراها[78].

وقد يقال إنها بنيت للمجهول اجتناب نسبة المرض إلى فاعله في هذا المقام، ويرده العقاد بقول العرب في الدعاء: قاتله الله، وأهلكه الله، وأبعده الله، ويرده نسبة الفعل إلى الله، مع أن القتل والهلال والإبعاد أشد، ولا شك، من الزكام وأولى بالتحرز من ذكر الفاعل أن يقع فيما هو أشد من تلك العلل جمعاء، وهو الموت[79].

والملحوظ أن المواقف التي تعافها النفس، أو التي تكرهها، أو التي لا تليق، حذف فيها الفاعل. حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير. (من الآية 3 من سورة المائدة)

كتب عليكم القتال وهو كره لكم. (من الآية 216 من سورة البقرة)

كتب عليكم الصيام. (من الآية 183 من سورة البقرة)

أما (مات) فهي فعل لازم ولا مفعول له غير المصاب به.

3. مقارنة في ضمائر الجنس والعدد:

يذكر العقاد أن العربية تتفوق على الأوروبيات في استعمال الضمائر والأسماء الموصولة، واحتوائها عليها جميعاً، وبقاء أصولها فيها إلى اليوم مستعملة لأغراضها التي تناسبها، وهذا مؤشر على عراقتها في التطور وتمامه.

والضمائر في العربية مشخصة للجنس المذكر والمؤنث، ولا وجود للمحايد فهذا وضع عقلي مخطئ، والعربية تقسم الضمائر إلى ما يدل على العاقل، وما يدل على غير العاقل، وهذا هو التقسيم العقلي المنطقي، وليست القسمة إلى مذكر ومؤنث ومحايد، على نحو ما تفعله الأوروبية. وللضمائر لديهم دلالة على حالتين، المفرد والجمع ولكنها في العربية لها حالة ثالثة، وهي حالة المثنى، وهي حالة متناهية في الدقة.

ومن مظاهر الدقة بين الضمائر التفرقة بين جموع القلة، وجموع الكثرة، بأوزان مطردة يدركها الذوق العربي[80].

4. مقارنة في التعريف والتنكير:

يعتد العقاد عوامل التعريف والتنكير وأدواتها في مقدمة المقاييس التي تعرف بها درجة اللغة من الكفاية والارتقاء، لأن التعريف والدلالة عمل واحد، وتعد العربية بهذا المقياس في المنزلة

الأولى بين لغات الحضارة، فهي لا تدانيها لغة، فضلاً، عن التفوق عليها، في دقة التمييز بين مواضع التعريف ومواضع التنكير عل حسب معانيها[81].

ثم يعمد العقاد إلى مفصلة مشخصات التعريف لدى لغتنا العربية، فالمعرفات في لغة الحضارة تنقسم إلى قسمين قسم يتحقق له التعريف بحكم وضعه وبغير حاجة إلى أداة أو نسبة تربطه بكلمة أخرى، وهو في العربية يتمثل في الضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والأعلام. وقسم يتحقق له التعريف بأداة أو علامة، أو نسبة بينه وبين كلمة أخرى، وهو متحقق في بنية اللغة العربية. وفي العربية لا تحتاج ضمائر المتكلم إلى تمييز بين المذكر والمؤنث، وضمائر المخاطب تحتاج إلى تمييز، فنقول: أنت كتبت، بفتح التاء في كتبت وكسرها للمؤنثة. وفي اللغات الأخرى يتساوى المخاطب في الجمع والإفراد، وفي التذكير والتأنيث، فيقال عندهم: (أنتم تكتب) كما يقال: (أنت تكتب) فقد يكون في ذلك خلط، أو هو أروح [82].

أما أسماء الأعلام فهي عندنا غنية عن أداة التعريف، ولكنها ليست كذلك في بعض لغات الحضارة، إذ يقال عندهم: الفرنسا، الألمانيا.

وتعريف الأعلام الجغرافية قد تدل عندنا على أسماء أجيال من الناس، وليست أسماء أماكن، فإن الهند والصين والروس مرادفة في مفهومنا للهنديين والصينيين والروسيين.

وقد تدخل أسماء الأعلام أداة تنكير، كقولنا: زيدٌ، للدلالة على أي زيد، ويسمى تنوين التنكير[83].

وعقب هذا الاستعراض الطويل لأفكار هذا العالم الجليل، وجهاده المشهود بالكلمة الصادقة العقلانية، المعززة بالمنطق والحجة البينة، وحماسته العاقلة، وشغفه الظاهر بالعربية وسننها وقوانينها وأساليبها، وعتبه الشديد على أبنائها المغرر بهم أحياناً، هل في كلام هذا العالم العظيم مقنع لمن تولوا عن العربية الفصحى، وشغبوا عليها، وهل وفقنا في عرض هذه السلاسل الذهبية، من الأفكار المنيرة، التي تشكل مشكاة للسالكين في حب العربية والعروبة.

فإن كان ثمة قصور فالمسؤولية علي، وإن كان التواء، أو تكرار فذلك من لدنا، وذلك مأتى مألوف، فالقصور مستول على جملة البشر.

وحق للقارئ الكريم، أن يسمي العقاد فيلسوف العربية، وفارسها ومجلي عبقريتها، والله غالب على أمره.

الخلاصة:

1. يثبت العقاد، رحمه الله وجزاه أحسن الجزاء، أن اللغة العربية ليست جميلة فحسب بل هي لغة عالية، من معطيات اللغة نفسها وخصائصها، وعلى المعايير التي أفرزها علم اللغة الحديث.
2. اللغة العربية لغة شاعرة، ليس بمعنى اللغة الشعرية وليست يكثر فيها الشعراء، ولكنها جارية مجرى الشعر في تركيب أصواتها وأوزان مفرداتها، وقواعدها وضوابطها. فهي لغة شفافة إيقاعية مؤتلقة، سمحة، طيعة مواتية.
3. يشدد العقاد النكير على الداعين إلى استبدال مفردات كتابية أصلح، بدل الخط العربي، أو اللغة نفسها، بمفردات كتابية أصلح للكتابة. ويرى أن الخط العربي من أكمل الخطوط، آية ذلك صلح لكثير من اللغات القديمة والحديثة، ولا أحد يعيبه إلا متنقص أو شانئ.
4. اللغة العربية ليس النظام فيها جملة فعلية فقط لغرض نفسي أو اجتماعي، على نحو ما ادعى المستشرقون، بل الجملة فيها اسمية وفعلية خلافاً لدعاوى المتخوضين بالباطل، وفيها مرونة سمحة تسعف المتكلم.
5. الزمن في الذهنية العربية واضح دقيق، من خلال المعطيات اللغوية المتنوعة.
6. العربية لا تعبر عن الظرف، بظروف الإعراب حسب، بل لديها آليات متنوعة تحكي الحالة أو الظروف.
7. الدعوات التيسيرية في القراءة أو الكتابة أو النحو لا تعني تحقير العربية، بل ينبغي البحث في أنجع الوسائل لكشف العيوب والهنات وتجاوزها، والاقتراب إلى حالة صالحة بعيدة عن الغلو في التبكيت وجلد الذات، وبعيدة عن الغلو في التيه والفخار، كي نرى الأمور على بصيرة، وألا نخدع ببريق الآخر، بل نأخذ ما يلزمنا من غير إفراط ولا تفريط.
8. يذهب العقاد إلى أن ثمة ترابطاً بين الحروف (الأصوات) والمعاني الملموحة في النص، في سياق اللغة العربية، وهي قضية جدلية خلافية.
9. تتفوق اللغة العربية على كثير من اللغات الأوروبية في سعة المدرج الصوتي، وفي الإعراب، وفي آلية البناء للمجهول.
10. غاية الغايات لدى العقاد الكشف عن جماليات العربية، بل عن علوها وتفوقها، وإقناع أبنائها بوجوب صونها ورعايتها، والتمحور حولها بالتحدث عنها في كل المنابر والقنوات، حفاظاً على الهوية، وتوخي التجذر في موروثنا ضد التحديات، التي تستهدف لغتنا وديننا، ولا تني تتقصد تغولنا وتنقصنا وتهميشنا ليسهل ابتلاعنا، بعد مسخنا وسلخنا.

والحمد لله أولاً وآخراً

Al-Agaad's Efforts in Defending Arabic

Ahmed Flayyih, *Arabic Department, Jerash Private University, Jerash, Jordan.*

Abstract

This paper deals with the efforts that are under taken by Alakkad to reveal the beauty and the sublimity of the Arabic Language and its inability to express life and it excells many other European Languages. So its natives should hold on it, and speak it, because this language is our identity.

قدم البحث للنشر في 2008/5/27 وقبل في 2009/1/26

هوامش البحث:

(1) عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني: الديوان، طبعة ثالثة، ص 10.

(2) د. مصطفى ناصيف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، طبعة ثانية، دار الأندلس، ص 30.

(3) د. شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، ص139؛ جهاد العلاونة: العقاد المثقف، أفكار، 217، عام 2006م، ص150.

(4) الثعالبي: فقه اللغة، مقدمة المؤلف.

(5) العقاد: اللغة الشاعرة، 8-9.

(6) نفسه، ص 9 وينظر: حسن الكرمي: اللغة، وزارة الثقافة، الأردن، 2002م، ص70.

(7) د. كمال بشر: دراسات في علم اللغة، دار المعارف بمصر، 1973م، ص 11.

(8) العقاد: اللغة الشاعرة، ص 11.

(9) نفسه، ص 11.

(10) نفسه، ص 11.

(11) نفسه، ص 13.

(12) الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، 57/1. سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، 431/4-432. ابن سينا: أسباب حدوث الحروف، طبعة أولى، 60، 105. ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، 198/1. د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، الأنجلو المصرية، ص 52.

(13) محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، طبعة سابعة، ص 249.

(14) نفسه، ص 250 وينظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب، الطبعة الأولى، ص6؛ ود. حسن ظاظا: كلام العرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، ص25.

(15) العقاد: اللغة الشاعرة، ص 11.

(16) نفسه، ص 15.

(17) نفسه، ص 16.

(18) نفسه، ص 19.

(19) د. نهاد الموسى: العربية، الطبعة الأولى، 208. د. محمد خير الحلواني: المغني الجديد في علم الصرف، بيروت، 67. د. عبد الصبور شاهين المنهج الصوتي للبنية العربية، 1980م، ص 26.

(20) ابن فارس: الصاحبي، 215. ابن جني: الخصائص تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، 447/2. السيوطي: المزهر، دار الفكر، 355/1.

(21) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، 38، 307. وينظر: أنيس فريحة: في اللغة العربية، دار النهار، بيروت، ص 12.

(22) العقاد: اللغة الشاعرة، 21-22. أشتات مجتمعات، 27.

(23) العقاد: اللغة الشاعرة، 27؛ وينظر: د. تمام حسان: اللغة العربية، الطبعة الثانية، ص180 وما بعدها.

(24) العقاد: اللغة الشاعرة، 25.

(25) العقاد: اللغة الشاعرة، 27 وينظر: د. شكري عياد: موسيقى الشعر العربي، دار المعرفة، 1968م، ص 29.

(26) العقاد: اللغة الشاعرة، 30.

(27) نفسه، 32، 34.

(28) نفسه، 39.

(29) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، 28/3، 268، 10/1، 18، 145 وينظر: ابن جني: الخصائص 30/1؛ الثعالبي: فقه اللغة، 21، د. محمود حجازي: اللغة العربية عبر القرون، القاهرة، 1968م، ص 45.

(30) العقاد: اللغة الشاعرة، 40.

(31) نفسه، 51،

(32) نفسه، 61.

(33) نفسه، 65-69 وينظر: د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، طبعة ثالثة، 79، 107.

(34) العقاد: اللغة الشاعرة، 75.

(35) نفسه، 76 وينظر الثعالبي: فقه اللغة.

(36) نفسه، 77، 80.

(37) للمزيد ينظر: د. إبراهيم السامرائي: الفعل زمانه وأبنيته، مؤسسة الرسالة، 23. د. مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد وتوجيه، الطبعة الثانية، 141؛ عباس حسن: النحو الوافي، الطبعة الخامسة، ص 52؛ د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، الأنجلو المصرية، 1975م، ص 165.

(38) العقاد: اللغة الشاعرة، 88.

(39) يراجع للوقوف على هذا الصنيع: عبد الرحمن البوريني: اللغة العربية أصل اللغات كلها، الطبعة الأولى، 1998م، ص 101-161.

(40) العقاد: اللغة الشاعرة، 25 وينظر: د. يحيى عبابنة: النظام اللغوي للهجة الصفاوية، 1997م/ ص 142 وما بعدها. وينظر: د. خليلي يحيى نامي: دراسات في اللغة العربية، دار المعارف بمصر، ص13.

(41) العقاد: أشتات مجتمعات، 27. وينظر: إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، الطبعة الأولى، 168.

(42) العقاد: أشتات مجتمعات، 32-33.

(43) إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، 79.

(44) العقاد: أشتات مجتمعات، 33 وقارن بقول إبراهيم مصطفى ص 79.

(45) العقاد: أشتات مجتمعات، 34 وينظر ابن الأنباري: أسرار العربية، 68.

(46) د. أحمد عبد الستار الجواري: نحو التيسير، 1984م، ص 83. وينظر: د. داود عبده: أبحاث في اللغة، مكتبة لبنان، 1973م، ص 98. وينظر: د. نهاد الموسى: نظرية النحو العربي، طبعة ثانية، 1987م، ص 47.

(47) العقاد: أشتات مجتمعات، 43.

(48) نفسه، 48-49.

(49) سيبويه: الكتاب، 14/4؛ ابن جني: الخصائص، 145/2، 152، 158، 160، 162. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، 98، 100، 101. السيوطي: المزهر، 47/1؛ محمد المبارك: فقه اللغة، 105، 259. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، طبعة خامسة، 1975م، ص146. د. محمد كراكبي: علاقة الصوت بالمعنى، مجلة جرش، العدد الخامس، ص13.

(50) العقاد: أشتات مجتمعات، 50؛ ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص60. الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، 21.

(51) أشتات مجتمعات، 52-53 وينظر: د. آمنة بن مالك: مشكلة الخط العربي، مجلة الآداب، جامعة قسنطينة، عدد (1)، 1994م، ص 152.

(52) العقاد: أشتات مجتمعات، 50.

(53) نفسه، 52 وينظر للمزيد: أنيس فريحة: اللغة العربية، دار النهار، 1980م، ص 165 ود. شوقي ضيف: تيسير النحو، دار المعارف،13، 26؛ وأمين الخولي: مناهج تجديد، دار المعرفة، 1961م، ص 25.

(54) العقاد: أشتات مجتمعات، 50.

(55) نفسه، 86.

(56) نفسه، 87.

(57) نفسه، 88 وللمزيد يراجع: الفراء: المذكر والمؤنث، تحقيق د. رمضان عبد التواب، دار التراث، 116؛ ود. يحيى عبابنة: دراسات في فقه اللغة، دار الشروق، 2000م، ص 77.

(58) نفسه 90.

(59) نفسه 90.

(60) نفسه 90.

(61) نفسه 91.

(62) نفسه 93.

(63) نفسه 94.

(64) نفسه 94.

(65) نفسه 95.

(66) نفسه 95.

(67) نفسه 95-96.

(68) د. أحمد ضيف: مقدمة لدراسة بلاغة العرب، 1921م، ص 11.

(69) د. إبراهيم يوسف السيد: العربية الفصحى بين المعرفة والأداء الوظيفي، المجلة الأردنية في اللغة العربية، مجلد (2)، عدد (2)، عام 2006م، ص 116.

(70) العقاد: أشتات مجتمعات، 56؛ وإسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، 14.

(71) علي الجارم: الجملة الفعلية أساس التعبير في العربية، مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء السابع، القاهرة، 1953م.

(72) د. إبراهيم السامرائي: الفعل زمانه وأبنيته، 206.

(73) ابن الأنباري: نزهة الألباء، 17.

(74) د. مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد، طبعة ثانية، 101.

(75) العقاد: أشتات مجتمعات، 59.

(76) نفسه، 61.

(77) نفسه، 63.

(78) نفسه، 67.

(79) نفسه، 68.

(80) نفسه، 75-76.

(81) نفسه، 77.

(82) نفسه، 78.

(83) نفسه، 78.

* إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، 96. أحمد عبد الستار الجواري: نحو التيسير، 66.

** تمام حسان: اللغة العربية، 240. إبراهيم السامرائي: الفعل زمانه وأبنيته، 23.

المصادر والمراجع

ابن الأنباري. (د.ت). **نزهة الألباء**، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء.

ابن الجزري. (د.ت). **النشر في القراءات العشر**، دار الكتب العلمية.

ابن النديم. (د.ت). **الفهرست**، دار المعرفة، بيروت.

ابن جني. (1954). **سر صناعة الإعراب**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مصطفى الحلبي.

ابن جني. (د.ت). **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت.

ابن سينا. (د.ت). **أسباب حدوث الحروف**، طبعة أولى.

ابن فارس. (د.ت). **الصاحبي في فقه اللغة**، تحقيق مصطفى الشويمي.

أنيس، إبراهيم. (1971). **من أسرار اللغة**، طبعة خامسة، الأنجلو المصرية.

أنيس، إبراهيم. (د.ت). **الأصوات اللغوية**، الأنجلو المصرية.

بشر، كمال. (1973). **دراسات في علم اللغة**، در المعارف بمصر.

بن مالك، آمنة. (1994). مشكلة الخط العربية، **مجلة الآداب**، جامعة قسنطينة، العدد (1).

البوريني، عبد الرحمن (1998). **اللغة العربية أصل اللغات كلها**، طبعة أولى.

الثعالبي. (1972). **فقه اللغة**، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، طبعة ثالثة.

الجاحظ. (د.ت). **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، الطبعة الرابعة.

الجرجاني، عبد القاهر. (1978). **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.

الجواري، أحمد عبد الستار. (1984). **نحو التيسير**.

حجازي، محمود. (1986). **اللغة العربية عبر القرون**، القاهرة.

حسان، تمام. (1979). **اللغة العربية**، طبعة ثانية.

حسن، عباس. (د.ت). **النحو الوافي**، طبعة خامسة، دار المعارف بمصر.

الحلواني، محمد خير. (د.ت). **المغني الجديد في علم الصرف**، دار الشرق العربي، بيروت.

الخولي، أمين. (1961). **مناهج تجديد**، دار المعرفة.

الزبيدي. (د.ت). **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة ثانية، دار المعارف بمصر.

السامرائي، إبراهيم. (د.ت). **الفعل زمانه وأبنيته**، مؤسسة الرسالة.

سيبويه. (د.ت). **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

السيد، إبراهيم يوسف. (2006). العربية الفصحى، **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها**، جامعة مؤتة، المجلد (2)، العدد (2).

السيوطي. (د.ت). **المزهر في علوم اللغة**، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزميليه، دار الفكر.

شاهين، عبد الصبور. (1980). **المنهج الصوتي للبنية العربية**.

شوقي ضيف. (د.ت). **الأدب العربي المعاصر في مصر**، طبعة خامسة، دار المعارف بمصر.

شوقي ضيف. (د.ت). **تيسير النحو**، دار المعارف بمصر.

ضيف، أحمد. (1921). **مقدمة لدراسة بلاغة الغرب**.

ظاظا، حسن. (1976). **كلام العرب**، دار النهضة العربية، بيروت.

عبابنة، يحيى. (1997). **النظام اللغوي للللجهة الصفاوية**.

عبابنة، يحيى. (2000). **دراسات في فقه اللغة**، دار الشروق.

عبده، داود. (1973). **أبحاث في اللغة**، مكتبة لبنان.

العقاد، عباس محمود. (د.ت). **أشتات مجتمعات**، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة.

العقاد، عباس محمود. (د.ت). **اللغة الشاعرة**، مكتبة غريب، القاهرة.

العلاونة، جهاد. (2007). العقاد المثقف، **مجلة أفكار**، 217، الأردن.

عمر، أحمد مختار. (1982). **علم الدلالة**، طبعة ثالثة، عالم الكتب.

عياد، شكري. (1968). **موسيقى الشعر العربي**، دار المعرفة.

الفراء. (د.ت). **المذكر والمؤنث**، تحقيق د. رمضان عبد التواب، دار التراث.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (د.ت). **كتاب العين**، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي.

فريحة، أنيس. (1980). **في اللغة العربية**، دار النهار، بيروت.

كراكبي، محمد. (2007). علاقة الصوت بالمعنى، **مجلة جرش**، عدد (5).

الكرمي، حسن. (2002). **اللغة**، وزارة الثقافة، الأردن.

المبارك، محمد. (د.ت). **فقه اللغة وخصائص العربية**، دار الفكر، طبعة سابعة.

المخزومي، مهدي. (د.ت). **في النحو العربي نقد وتوجيه**، الطبعة الثانية.

مصطفى، إبراهيم. (1959). **إحياء النحو**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

الموسى، نهاد. (1987). **نظرية النحو العربي**، طبعة ثانية.

الموسى، نهاد. (2000). **العربية**، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية، بيروت.

ناصف، مصطفى. (د.ت). **قراءة ثانية لشعرنا القديم**، طبعة ثانية، دار الأندلس.

نامي، خليل يحيى. (د.ت). **دراسات في اللغة العربية**، دار المعارف بمصر.

وافي، عبد الواحد. (د.ت). **علم اللغة**، طبعة سابعة، دار نهضة مصر، القاهرة.